



المحاضرة الخامسة:

الدول العربية الشمالية (الحيرة والغساسنة)

أولاً: دولة الحيرة (نشأتها وتاريخها)

أشارت المصادر إلى أن تتوخ هم الذين قاموا بإنشاء دولة الحيرة، فتتوخ هم حي من أحياء الأزد الذين هاجروا من اليمن إلى العراق، وسُموا بهذا الاسم لأنهم تحالفوا وتآخوا مع القبائل العربية الأخرى في البحرين قبل قدومهم إلى العراق.

ويبدو أن انتقال التتوحيين إلى العراق كان قد تم في أواخر عهد الدولة الفرثية والتي كانت بدورها تعاني من الضعف والانقسام السياسي بين حكامها، وفي هذه الفترة تم انتقال تتوخ إلى أرض العرب (أراضي السواد) بطريقة تدريجية، ونزل الكثير منهم منطقة الأنبار والحيرة واتخذوا من الحيرة عاصمة لهم.

أما تسمية دولة الحيرة بالمناذرة فذلك يعود إلى كثرة ملوكها الذين حملوا اسم المنذر، كما أنها سميت بالدولة اللخمية نظراً لأن هؤلاء الملوك كانوا ينتمون إلى العشيرة اللخمية "بنو لخم"، كما أطلق عليها دولة الحيرة لأن عاصمتها كانت مدينة الحيرة.

ترغم المناذرة مالك بن فهم وحكمهم مدة عشرين سنة وامتد سلطانه إلى منطقة الجزيرة، ويبدو أنه قتل برمياً سهم، ثم تولى الحكم من بعده ابنه جذيمة الأبرش الذي امتد حكمه ما يقارب ستين سنة، وبذلك توافرت له الفرصة في تثبيت مملكته مستغلاً الظروف السياسية المرتبطة للدولة الفرثية التي كانت مسيطرة على العراق إلى أن تم سقوط الدولة الفرثية وقيام الدولة الساسانية.

استطاع جذيمة أن يوحد أبناء القبائل العربية تحت قيادته من خلال استخدام وسائل القوة والسياسة والدهاء. وبعد قيام الدولة الساسانية وتولى الحكم فيها الملك أردشير الذي سعى إلى بسط نفوذه على العراق العتقاده أن العراق من ضمن دولته بسبب خضوعه للدولة السابقة (الفرثية)، وجد جذيمة نفسه في وضع صعب لأنه غير قادر على الدخول في حرب عسكرية مع الدولة الساسانية. وفي الوقت نفسه حرص على المحافظة على كيان دولته واستقلالها، فدخل مع الساسانيين في تحالف وتعاون، وكان الهدف من ذلك ضبط حدودها ضد غارات الأعراب، كما وقفت مع الساسانيين في صراعهم ضد البيزنطيين، وأصبحت هذه السياسة القاعدة الأساس التي سار عليها ملوك المناذرة من بعده.

كما امتد نفوذ جذيمة إلى أطراف شبه الجزيرة فغزا طسم وجديس في اليمامة، وحارب عمرو بن ضرب في مشارق بلاد الشام وانتصر عليه. أما من الناحية الدينية فإن جذيمة قد تتبأ وتكهن واتخذ له صنمين يقال لهما "الضيزنان" فكان يستسقى بهما ويستنصر بهما على العدو مستهويماً بذلك بعض



القبائل العربية من أجل توسيع سلطانه وتقوية حكمه، وبذلك جمع بين الدين والسياسة فكان (ملكاً- كاهناً).

أما من الناحية الإدارية فإنه قد اتخذ له المستشارين والوزراء، منهم عدي بن نصر الذي ولاه كأسه والقيام بمجلسه، فكان بمثابة رئيس التشريعات. كما أن عدي بن نصر قد تزوج أخت جذيمة الأبرش فولدت له عمرو بن عدي الذي تولى الملك بعد وفاة خاله جذيمة.

أشارت المصادر إلى أن نهاية جذيمة الأبرش قد جاءت على يد امرأة تدعى الزباء (زنوبيا) ابنة عمرو بن الضرب الذي قتله جذيمة، وكانت الزباء قد استدرجت جذيمة لزيارتها في ديارها لغرض الزواج منه ثم قتلته.

ومن الذين حكموا دولة الحيرة امرؤ القيس الأول (٢٨٨-٣٢٨م) الذي تولى الملك بعد وفاة عمرو بن عدي، وامتد حكمه أربعين سنة. عاصر خلال فترة حكمه من ملوك الفرس كل من بهرام الثالث ونرسي وسابور الثاني الملقب بذي الأكتاف، وامتد سلطانه إلى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية من غير معارضة واضحة من قبل الفرس أو الرومان، ولضمن ولاء القبائل الخاضعة له قام بتتصيب أولاده ملوكاً عليهم.

لقد عثر الباحثون الآثاريون في قرية النمارة الواقعة في منتصف المسافة بين دمشق وبصرى على كتابة منقوشة بالخط النبطي توضح منجزات هذا الملك وقبره وأعماله، لذا فقد عد الباحثون نقش النمارة هذا من أهم النقوش التي عثر عليها مما يتصل بتاريخ العرب قبل الإسلام سواء من ناحية اللغة والخط أو من ناحية المعلومات التاريخية التي يتضمنها. وقد استنتج من دراسته عدة حقائق فيما يخص امرئ القيس الأول من أهمها :

١. لم تعد معلوماتنا عن امرئ القيس معلومات ظنية تعتمد على الروايات الشفهية، وإنما أصبحت معلومات دقيقة تستند إلى وثيقة كتابية معاصرة لأمري القيس نفسه.
٢. أكد لنا هذا النقش تاريخ وفاة امرئ القيس في ٧ أيلول عام ٣٢٨م وأنه دفن في قرية النمارة بين بصرى ودمشق.

٣. وجود قبر امرئ القيس في قرية النمارة يدل على أنه بسط نفوذه على الأراضي الممتدة بين بصرى ودمشق، فضلاً عن إخضاعه للعرب من نزار وأسد ومعد، وبلغ سلطانه نجد والحجاز حتى وصل حدود مدينة نجران، وبذلك وحد القبائل تحت سلطته فلقب بـ "ملك العرب كلهم".



٤. استطاع امرؤ القيس أن يقيم علاقات متوازنة بين كل من الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، فحرص على مراعاة مصالح هاتين الإمبراطوريتين دون أن يفقد استقلاله أو يتحول إلى تابع لأحدهما.

وعلى الرغم من الإنجازات السياسية والحربية التي حققها امرؤ القيس في حياته، فإنه لم يصل إلينا أي شيء عما حققه في المجالات الحضارية أو الثقافية. وكل ما وصلنا عنه في هذا المجال أنه كان أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة، ولم يرد ما يؤيد هذه الرواية في المصادر اليونانية أو الآرامية وهي مصادر تُعنى بمثل هذا الخبر، مما يجعل هذا الخبر موضع شك ونظر حتى يصل إلينا من الأدلة ما يثبت أو ينفيه.

وقد وصلت رواية تشير إلى أن امرأ القيس كان قد لقب بـ "المحرق"، وقد أكد أحد الباحثين أن هذا كان اسماً لأحد الأصنام عند العرب، وذهب إلى أنه من المحتمل أن تكون ثمة علاقة بين امرئ القيس الأول وبين هذا الصنم، كأن يكون قد اتخذ من باب التيمّن والتبرّك للملك الذي عرف بالمحرق، أو أنه قدم قرباناً لهذا الإله أحرقه على مذبحه بالنار وكان يكثر من حرق القرابين للآلهة، وتلك عادة معروفة.

إن هذا التفسير الأنف الذكر يدل في حالة صحته على أن امرأ القيس بن عدي كان يدين بالوثنية شأنه في ذلك شأن غالب العرب في تلك الحقبة من الزمان، ولو كان الأمر على خلاف ذلك فإنه كان من المرجح أن تتم الإشارة إليه في رقيم النمارة الذي أُقيم عند قبره.

وبعد وفاة امرئ القيس الأول تولى الملك من بعده ابنه عمرو الثاني، ولم تزودنا المصادر بشيء عن أعماله ولم تتفق على مدة حكمه، وإن كان بعض الباحثين قد ذهب إلى أنه حكم من سنة ٣٢٨-٣٧٧م. وحين وفاته انتقل الملك إلى أوس بن قلام العمليقي، وهو شخص طارئ على الحكم ولا يمت بصلة نسب إلى الأسرة اللخمية مما يدل على أنه قد تولى الملك بطريقة غير شرعية، لذا فإن حكمه لم يمتد لأكثر من خمس سنوات. ثم تولى الحكم امرؤ القيس الثاني بن عمرو الذي حكم من ٣٧٧-٣٩١م، ولم يصلنا خلال فترة حكم الملوك الثلاثة ما يستحق التدوين حتى تولى الحكم النعمان الأول (السائح)، ثم النعمان بن المنذر المعروف بـ (أبو قابوس).

فبعد وفاة المنذر الرابع الذي ترك ثلاثة عشر ولداً ظهرت المنافسة بينهم، وفسحت هذه المنافسة لأعوان المنذر من العرب والفرس أن يمارسوا دوراً في اختيار ملكاً على المناذرة، وكانت النتيجة أن أفلح عدي بن زيد الذي كان يعمل مترجماً في البلاط الفارسي أن يرجح كفة النعمان بن المنذر لتولي الملك.



استمر حكم النعمان بن المنذر مدة ٢٢ سنة عاصر فيها الملك الفارسي هرمز بن أنوشروان والملك كسرى بن هرمز، وقد حاول النعمان أن يحافظ على نفوذ دولته بين القبائل العربية وامتد سلطانه جنوباً إلى منطقة البحرين وأخذت قوافله التجارية تذهب إلى الحجاز.

ويبدو أنه حاول أن يمارس نوعاً من الاستقلال في علاقاته مع الدولة الساسانية، بعد أن أمعنوا التدخل في الشؤون الداخلية لدولة الحيرة مستغلين علاقات التحالف بين الدولتين وضعف الملوك الذين حكموا الحيرة بعد مقتل عمرو بن المنذر.

وذكر أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة حاول أن يستقل في علاقاته مع ملك الفرس؛ ففي أيام محنة خسرو الذي فر من وجه بهرام، فإن النعمان لم يمد له يد العون ولم يساعده في محنته. فلما انتهى خسرو من مقاتلة أعدائه وانتصر عليهم أراد تسوية حسابه مع خصومه، ومن بينهم النعمان، فدعاه إلى مأدبة ووضع أمامه الكلاً بدل الخبز، فغضب النعمان وخرج بجيشه واستولى على مناطق عديدة من بلاد فارس، فغضب كسرى على النعمان وأخذ يسعى إلى القضاء عليه.

وهناك من يرى أن أسباب غضب كسرى على النعمان كانت ذات طابع شخصي؛ ذلك أن كسرى قد غضب على النعمان لأنه كان قد قتل عدي بن زيد الذي كان يعمل مترجماً لدى كسرى، ومما زاد غضب كسرى على النعمان هو رفض النعمان تزويجه ابنته التي قرر خطبتها بتحريض من زيد بن عدي، والذي كان على علم بعدم موافقة النعمان على ذلك الطلب لاعتبارات تتصل بقيم العرب الاجتماعية، وبذلك يوقع بين كسرى والنعمان ثأراً لوالده.

وربما كان اعتناق النعمان للنصرانية سبباً لمقتله ونقمة كسرى عليه، ويقال إنه مات مسموماً "ذلك المؤمن الأمجد" كما جاء في إحدى الحوليات السريانية.

ومن المرجح أن سبب نقمة كسرى على النعمان كان سبباً سياسياً؛ وذلك لأن سلطة النعمان بدأت تتسع على العرب، وأخذ يفكر في الاستقلال من الساسانيين. وهناك روايات متعددة عن قصة مقتل النعمان، وهي أن كسرى كان قد دعا النعمان لزيارته في المدائن، وقد تخوف النعمان من نتائج هذه الزيارة، لذا فقد ترك النعمان أهله وأمواله وأسلحته عند بني شيبان ثم ذهب إلى بلاط كسرى، فلما بلغ كسرى أن النعمان بالباب بعث إليه فقيده، وبعث به إلى خانقين، فلم يزل في السجن حتى وقع الطاعون ومات فيه. وهناك من يرى أنه لما وصل إلى خانقين طُرح به تحت الفيلة فداسته حتى قُتل وقُرب للأسود فأكلته.

وقد شرع الفرس بعد مقتل النعمان في تطبيق سياسة جديدة تستهدف التدخل المباشر في إدارة شؤون الحيرة، فنصبوا إياس بن قبيصة الطائي ملكاً عليها ووضعوا إلى جانبه حاكماً فارسياً لمشاركته



ومراقبته في إدارة شؤون الدولة. وبهذا فإن إياس بن قبيصة لم يكن حاكماً مستقلاً بل وجد على الحال من التبعية للعامل الفارسي خلال فترة حكمه التي استمرت تسعة أعوام، ولم تستمر هذه الأفعال دون ردة فعل من قبل العرب فكانت معركة ذي قار.

وذي قار موضع فيه ماء قريب من الكوفة، كانت تقصده قبيلة بكر بن وائل في موسم الصيف، وقد نسبت إليه معركة ذي قار لأنها وقعت بالقرب من هذا المكان. وقد ذكر المؤرخون أن سبب هذه المعركة هو أن كسرى طلب من إياس بن قبيصة الطائي الذي أصبح ملكاً على الحيرة أن يرسل إليه الأموال التي سبق أن أودعها النعمان بن المنذر لدى هاني بن قبيصة بن مسعود الشيباني، وكان تتألف من أسلحة ودروع.

ويبدو أن الفرس كانوا يرغبون في الحد من مقادير الأسلحة التي وجدت في أيدي العرب لإحكام السيطرة عليهم، وحين طلب إياس من هاني تسليم أموال النعمان وبضمنها الأسلحة، رفض الاستجابة للطلب فأغضب ذلك كسرى وقرر أن يستأصل قبيلة بكر بن وائل من بني شيبان. وانتظر كسرى حتى حلول فصل الصيف، حين تشح المياه في البوادي ويجتمع بنو شيبان عند ماء ذي قار، فأرسل إليهم إما أن تستسلموا لحكم كسرى وإما أن تغادروا هذه الديار وإما أن تواجهوا الحرب مع كسرى. فلما تشاوروا في الأمر أخذوا برأي حنظلة بن ثعلبة العجلي الذي قال لهم: لا أرى إلا القتال؛ لأنكم إن أعطيتكم بأيديكم قُتلتم وسُبيت ذراريكم، وإن هربتم قتلتم العطش، وتلقاكم تميم فتهلككم، فأذنوا الملك بحرب الملك.

كانت القوة التي حشدها الفرس (كسرى) لمقاتلة قبيلة بكر بن وائل مؤلفة من الفرس وبعض أبناء القبائل العربية الخاضعين له من طيء وتغلب والنمر وإياد، وكان على رأسهم إياس بن قبيصة الطائي كي يطبع هذه الحرب بطابع داخلي فيحارب العربي العربي، إلى جانب الجنود من الفرس الذين بلغ عددهم حوالي ١٠٠٠ مقاتل مستخدمين أسلحتهم وفيلتهم.

وبعد أن تجمع الفريقان (الفرس والعرب) عند ذي قار، أخذ الحس القومي يتحرك في نفوس العرب الذين ارتضوا في البداية القتال إلى جانب الفرس؛ فتسلل قيس بن مسعود ذو الجدين، وكان أحد عمال كسرى على منطقة طف سفوان، إلى معسكر بكر بن وائل، وقال لزعيمهم هاني بن قبيصة: أعط قومك سلاح النعمان فيقووا، فإن هلكوا كان تبعاً لأنفسهم، وكنت قد أخذت بالحزم، وإن ظفروا ردوه عليك، ففعل وقسم الدروع والسلاح في ذوي القوى من قومه.